الباب السابع

الحلم في نفحات الأدباء وأخبار الحكماء

الفصلُ الأوَّلُ : من أنداءِ الحلمِ في أشعارِ العرب .

الفصلُ الثَّاني : الحلمُ بين أنفاسِ الفلاسفةِ والحكماءِ والحلماءِ والشُّعراءِ .

الفصلُ الثَّالثُ : من أخبارِ حُلَماءِ العربِ .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصلُ الأوّلُ

من أنداءِ الحلمِ في أشعارِ العَربِ

* في كتُبِ الأدبِ القديمةِ والحديثة ، نجدُ أصحابها قد أولوا الحلمَ عنايةً خاصَّةً ، وذكروا بدائعَ بدائه الشعراء فيما نفحوا به الأدبَ العربي الجميل من أشعارهم الحِسان ، وأقوالهم الجميلة في هذا الميدان .

* وقد حفلت دواوينُ الشُّعراءِ قديماً وحديثاً بنخبةٍ ممتازةٍ ممّا قيل في الحلم ، واشتُهِرَ عددٌ من شعراءِ العربيّة في هذا المضمار الميمون ؛ ومن تصفَّح دواوين شعراءِ عصر الجاهلية وعصر الإسلام ومَنْ بعدهم وجد أنَّ الحلمَ يزيِّنُها ، كما يجدُ أنَّ أدبَ الحلمِ كان من الآدابِ الرَّائجةِ في كلِّ عصرٍ ومِصر .

* ولقُرَّاءِ الشِّعر العربي قديمه وحديثه آراءٌ طيِّبةٌ في الحكمِ

على بعض النَّفحاتِ الشِّعريّة ، ومن ذلك إجماعُهم على أنَّ أشعرَ بيتٍ قيل في أدبِ الحلمِ هو قولُ الشَّاعر :

إذا أنتَ لم تُعْرِضْ عنِ الجهل والخَنا

أصبتَ حليماً أو أصابكَ جاهلُ[1]

وهذا البيتُ كما جاء في المصادر لكعب بن زهير المزني[2] .

---

(١) نهاية الأرب (٦/ ٥٦) ، والمستطرف (١/ ١٩٤) .

(٢) كعبُ بنُ زهير بن أبي سلمى المُزَني الشَّاعرُ ابنُ الشَّاعرِ ، صحابيٌّ مشهورٌ ، خرجَ هو وأخوه بُجَير حتّى قدما على رسول الله ﷺ فدخلَ بُجَير وأسلم ، وكان كعبٌ قد قال شعراً أغضبَ عليه رسول الله ﷺ ، فأهدرَ دمَهُ ، فكتبَ إليه بُجيرٌ بذلك ، وقال له : النَّجاء ، ثمّ كتبَ إليه : إنّه لا يأتيه أحدٌ مسلماً إلا قبل منه ، وأسقطَ ما كان قبل ذلك ، فأسلمَ كعبٌ ، وقدمَ المسجدَ النَّبويّ ، وطلبَ الأمانَ من النَّبي ﷺ ، فعفا عنه ، فبايعهُ كعبٌ وأنشده القصيدة الشَّهيرة التي مطلعُها :

بانت سُعادُ فقلبي اليومَ متبولُ متيَّمٌ إثرها لم يفْدَ مكبولُ

* ويُروى أنَّ الشَّعبي ـ رحمه الله ـ كان أولعَ شيءٍ بهذا البيت الجميل اللطيف :

ليستِ الأحلامُ في حالِ الرِّضا
إنَّما الأحلامُ في حالِ الغضبِ[1]

* ويرى كثيرٌ من الشُّعراء أنَّ فضيلةَ الصَّمتِ مقرونةٌ

= ومنها :
نبّئتُ أنَّ رسول الله أوعدَني والعفوُ عندَ رسول اللهِ مأمولُ

ومنها :
إنَّ الرَّسولَ لنورٌ يُستضاءُ به مهنّدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ

فكساهُ النَّبي ﷺ بُردةً له ، فاشتراها فيما بعد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من ولده ، فهي التي يلبسها الخُلفاءُ في الأعياد .

هذا وأخبار كعب بن زهير مشهورة منثورة في كتب الأدب والتراجم والطبقات .

(الإصابة ٨/ ٢٨٩ـ٢٩٢) ترجمة رقم (٧٤٠٥) .

(١) المستطرف (١/ ١٩٢) .

بالحلم ، والحليمُ السَّكوتُ سِلْمٌ وسلامٌ ، وأسْلَمُ إذا لم يكن سكوتُه عن عيٍّ وبلادة ، ولله درُّ القائلِ :

لعمــرُكَ إنَّ الحلــمَ زيــنٌ لأهلــهِ
ومــا الحلــمُ إلا عــادةٌ وتحلُّــمُ
إذا لم يكن صَمْتُ الفتى عن بلادَةٍ
وعــيٍّ فــإنَّ الصَّمــتَ أهــدى وأسلــمُ

* وكانَ الخلفاءُ والملوكُ من أحْفَلِ الخَلْقِ في حفظِ ما لذَّ وطابَ من الأشعار ، التي تعالجُ الأخلاقَ وتفصحُ عن الخلائقِ المتأصِّلةِ في النُّفوس ، وكانوا يزيِّنون مجالسَهم بمحاسنِ الأحاديثِ والأشعارِ التي تجلو صدأ النُّفوسِ وتُهذِّبُها ، وتُذكي فيها روحَ مكارمِ الأخلاقِ .

* ومن ذلك ما أوردَه أبو الفرج الأصفهاني في « أغانيه » أنَّ عبد الملك بن هشام قال : قال عبدُ الملك بن مروان يوماً وعنده عدّةٌ من أهل بيته وولده : ليقُلْ كلُّ واحدٍ منكم أحسنَ شعرٍ سَمِعَ به ، فذكروا لامرىء القيس ، والأعشى ، وطَرَفة ، فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا ، فقال عبد الملك :

أشعرهم واللهِ الذي يقولُ :

وذي رحمٍ قلَّمْتُ أظفارَ ضغنِهِ ... بحلمي عنه وهو ليس له حِلْمُ
إذا سمْتُهُ وصلَ القرابةِ سامَني ... قطيعتها تلك السَّفاهةُ والظّلمُ
فأسعى لكي أبني ويهدمُ صالحي ... وليس الذي يبني كمن شأنُه الهدمُ
يحاولُ رغمي لا يحاولُ غيره ... وكالموتِ عندي أن ينالَ له رغمُ
فما زلتُ في لينٍ له وتعطُّفٍ ... عليه كما تحنو على الولدِ الأُمُّ
لأستلَّ منه الضَّغْنَ حتى سلَلْتُه ... وإن كان ذا ضغنٍ يضيقُ به الحلمُ

قالوا : ومَنْ قائلها يا أمير المؤمنين ؟

قال : مَعْنُ بنُ أوسٍ المزنيّ[1] .

---

(١) الأغاني للأصفهاني (١٢/٧٦ و٧٧) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ١٩٩٢ م ، وبالمناسبة فهي قصيدةٌ طويلةٌ جميلةٌ ، وبعد تلك الأبيات قوله :

فأبرأتُ غلَّ الصَّدرِ منه توسُّعاً ... بحلمي كما يشفى بأدويةٍ كَلْمُ
وأطفأتُ نارَ الحربِ بيني وبينَه ... فأصبحَ بعد الحربِ وهو لنا سِلْمُ

ومعنُ بنُ أوس بن نصر المزني شاعر مجيد فحل ، من =

* ومن أجملِ ما قيل في الحلم وامتداحه ، وذمِّ السَّفه وأهله ، ما قاله سراقةُ بن مرداس البارقي :

مجالسةُ السَّفيه سَفاهُ رأيٍ ومن حلمٍ مجالسةُ الحليمِ
فإنَّكَ والقرين معاً سواءٌ كما قُدَّ الأديمُ من الأديمِ

وفي مَدْحِ الحلم يقولُ أحدُ الشُّعراء :

ألا إنَّ حلمَ المرءِ أكبرُ نسبةٍ يُسامى بها عندَ الفخارِ كريمُ

= مخضرمي الجاهلية والإسلام ، وله مدائحُ في جماعةٍ من أصحاب النَّبي ﷺ ورحمهم ، منهم عبد الله بن جحش ، وعمر بن أبي سلمة المخزومي . ووفدَ إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مستعيناً به على بعض أمره ، وعُمّر بعد ذلك إلى أيّام الفتنة بين عبد الله بن الزُّبير ومروان بن الحكم ، وكان معاوية رضوان الله عليه يُفضِّلُ مزينة في الشِّعر ويقول : كان أشعر أهل الجاهلية منهم وهو زهير ، وكان أشعر أهل الإسلام منهم وهو ابنه كعب ومعن بن أوس . (الأغاني ١٢/ ٦٩ـ٨٢) .

فيا ربِّ هَبْ لي منكَ حلماً فإنَّني أرى الحلْمَ لم يندمْ عليه حليمُ[1]

* وممّن أدلى دلوَهُ في امتداحِ الحلم محمود بن حسن الورّاق ، الذي يشكو ظالماً ظَلَمَهُ ويرحمه ، ويرثي له حاله ، فيقول :

إنِّي وهبْتُ لظالمي ظُلمي وغفرتُ ذاكَ له على علمِ
ورأيتُـهُ أسـدى إلـيَّ يـداً لمـا أبـانَ بجهلـهِ حِلْمـي
رجعتْ إساءتُهُ عليه وإحسـ ـاني إليَّ مضاعفُ الغُنْمِ
وغـدوتُ ذا أجرٍ ومحمـدَةٍ وغدا بكسبِ الظُّلمِ والإثمِ
وكـأنَّمـا الإحسـانُ كـان لـه وأنا المُسيءُ إليه في الحكمِ
مـازال يظلمنـي وأرحمُـه حتى رثيتُ له من الظُّلمِ[2]

* والحلمُ في منظور الحسن البصري أفضلُ رداءٍ تردّى به

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٨١) .
(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٨٥) ، وزهر الآداب (ص ٩٨ و ٩٩) ، ونهاية الأرب (٦/ ٥٥) .

الإنسان ، وهو أحسنُ من بُردِ الحَبْر ، وأخذ أبو تمّام هذا المعنى فنظمَهُ فقال :

رقيقُ حواشي الحلْمِ لو أنَّ حِلمَهُ
بكفَّيْكَ ما ماريتَ في أنَّه بُرْدُ[1]

* وقال البحتري مادحاً :

حليمٌ إذا القومُ استخفَّتْ حلومهمْ
وقورٌ إذا ما حادِثُ الدَّهرِ أجلبا

* وهكذا نرى دائماً أنَّ الحلمَ مرتبطٌ بالكرمِ والشَّرفِ والسُّؤدُدِ ومكارمِ الأخلاقِ ؛ وفي أخبارِ الشُّعراءِ وأشعارهم صورٌ جميلةٌ في هذا الأدبِ الجميل ، وكثيراً ما نجدُ أحدَ الحُكماءِ قد تعرَّضَ له سفيهٌ ونالَ منه ، واعتدى عليه بقبيحِ الكلام ، فتركَهُ الحليمُ ولم يردَّ عليه تحلُّماً ، وألجمَهُ بالحلم ، فقامَ يجرُّ رجلَيْه ذليلاً حقيراً ، وقد حملَ المذمَّةَ والملام ، ويبقى الحلمُ سيِّدَ الأخلاقِ ، وفضائلُهُ أبلغ

---

(١) المستطرف (١/ ١٩٢) .

الفضائل ، وفي هذه المعاني يقول محمود الورّاق :

رجعتُ على السَّفيهِ بفضلِ حلمٍ ... وكان الفعلُ عنه له لجاما
وظنَّ بي السَّفاه فلم يجدني ... أُسافهُه وقلتُ له كلاما
فقامَ يجرُّ رجلَيْه ذليلاً ... وقد كسبَ المذمَّةَ والملاما
وفَضْلُ الحلمِ أبلغُ في سفيهٍ ... وأحرى أن يُنالَ به انتقاما

* وقد أجمعَ أهلُ الفضلِ من الشُّعراءِ على أنَّ الحلمَ أرفعُ الخصائلِ ، وأعلى الفضائلِ ، وعدُّوا أشعرَ النّاسِ مَنْ أجادَ امتداحَ الحلم ، ومن ذلك أنَّه قيل لحسان بن ثابت رضي الله عنه ، مَنْ أشعرُ النّاسِ ؟ قال : الذي يقولُ :

إنّي من القومِ الذينَ إذا اجتدوا ... وبدوا ببرِّ اللهِ ثم النَّائلِ
المانعينَ من الخَنا جيرانَهم ... والحاشدينَ على الطّعامِ النَّازلِ
الخالطينَ فقيرهم بغنيِّهم ... والباذلينَ عطاءَهم للسَّائلِ

ومنها :

لا يُطعمونَ وهم على أحسابهم ... يشفونَ بالأحلامِ داءَ الجاهلِ
والقائلينَ ولا يُعابُ خطيبُهم ... يومَ المقامةِ بالكلامِ الفاضلِ

والشِّعرُ لعمرو بن الإطنابة الخزرجي[1] .

* وهناك أشعارٌ وصلتنا عن الحلم تذكرُ محاسنَهُ ومساوئَهُ ، من ذلك أنَّ بعضَ الأعرابِ قد لخَّصَ منافعَ الحلمِ ومضارَّه ، ومحاسنه ومساويه ، فقال :

أرى الحِلْمَ في بعضِ المواطنِ ذلّة ... وفي بعضها عِزًّا يُشرِّفُ فاعلُه
إذا أنتَ لم تدفَعْ بحلمِكَ جاهلاً ... سفيهاً ولم تقرِنْ به مَنْ يُجاهلُه
لبست له ثوبَ المذلَّةِ صاغِراً ... فأصبحَ قد أودى بحقِّكَ باطلُه
فأبْقِ على جُهَّالِ قومِكَ إنَّه ... لكلِّ حليمٍ موطنٌ هو جاهلُه[2]

* * *

(١) انظر : أخبار عمرو بن الإطنابة في الأغاني (١١/ ١٢٧ـ١٣٠) .
(٢) انظر : رسائل الجاحظ (١/ ٣٦٥ و ٣٦٦) .

الفصلُ الثَّاني

الحِلْمُ بينَ أنفاسِ الفلاسفَةِ والحُكماءِ والحُلَماءِ والشُّعراءِ

* قالتِ الفلاسفةُ : الحلمُ فضيلةُ النَّفسِ يُكسبُها الطُّمأنينةَ ولا يُحرِّكُها الغضبُ بسهولةٍ وسرعةٍ .

* وقالوا : الحلمُ والأناةُ توءمانِ يُنتجهما علوُّ الهمَّةِ .

* وقال سفيان : ما تقلَّدَ امرؤٌ قلادةً أحسنَ من حلم ، فهو محمودٌ عاجلُه وآجلُه .

* ورأى حكيمٌ من ملكٍ ترفُّقاً فقال : ليس التَّاجُ الذي يفتخرُ به علماءُ الملوكِ فضّة ولا ذهباً ، لكنّه الوقارُ المكلَّلُ بجواهرِ الحلمِ ، وأحقُّ الملوكِ بالبسطةِ عند ظهورِ السَّقطةِ مَنِ

اتَّسعت قُدرتُه[1] .

* قال حسَّان :

أحلامُنا تزِنُ الجبالَ رزانةً وتزيدُ جاهلنا على الجُهَّالِ

* وقال المتنبّي :

وأحلمُ عن خِلّي وأعلمُ أنَّني متى أجزه حلماً عنِ الجهلِ يندمُ

* وقيل لحكيم : أيُّ الأحمالِ أثقل ؟!

قال : الغضب .

* وسُئِلَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما عن الغضبِ والحزنِ أيُّهما أشدُّ ؟ فقال : مخرجهما واحد ، واللَّفظُ مختلفٌ ، فمَنْ نازعَ مَنْ يقوى عليه أظهرهُ غضباً ، ومَنْ نازعَ من لا يقوى عليه كتمه حزناً .

* وقال الشَّافعيُّ : مَنِ استُغْضِبَ ولم يغضب فهو حمار ، ومن استُرضيَ ولم يرضَ فهو جبّار .

---

(١) محاضرات الأدباء (١/ ٢٢١) .

* وممّا جاءَ في ذمِّ الحلمِ قولُ سالم بن وابصةَ :

وإنَّ مــن الحلــمِ ذُلاً أنــتَ عــارفُــه
والحلـمُ عـن قـدرةٍ فَضْـلٌ مـن الكـرمِ

* وقال المتنبي :

من الحلمِ أن تستعملَ الجهلَ دونَه
إذا اتَّسعتْ في الحلمِ طُرقُ المظالمِ

* وقال آخر :

وفـي الحلـمِ ضعـفٌ والعقـوبـةُ هيبـةٌ
إذا كنتَ تخشى كيدَ مَنْ عنه تصْفَحُ

* وحذَّرَ أحدُهم من حلمِهِ ، ونهى عن الاغترارِ به فقال :

فــلا يغــرُرْكَ طــولُ الحلــمِ منِّــي
فمــا أبــداً تُصــادفنــي حليمــا

* وقيل : آفةُ الحلمِ الذّلُّ .

* وقيل : استعمالُ الحلمِ مع اللَّئيمِ أضرُّ من استعمالِ الجهلِ مع الكريم .

* وقال الأحنف :

ومَــنْ يحلُــمْ وليــس لــه سفيــةٌ
يُــلاقِ المعضــلاتِ مــن الــرِّجــالِ

* وقال غيرُه : أكرموا سُفهاءَكم فإنَّهم يكفونكم النّارَ والعار .

* ومدحَ الشَّعبيُّ الحلمَ فقال : زينُ العلمِ حلمُ أهلِه[1] .

* وقال محمدُ بنُ أبي شحاذ :

إذا الحلمُ لم يغلبْ لكَ الجهلَ لم تزلْ
عليــكَ بــروقٌ جمَّــةٌ ورواعِــدُ

* وقال شُريحٌ : الحلمُ كنزٌ موقَّرٌ ، والحليمُ مطيَّةُ الجَهولِ .

* وقالوا : بالعقلِ استُخْرِجَ غَوْرُ الحكمةِ ، وبالحلمِ استُخْرِجَ غَوْرُ العقلِ .

---

(١) بهجة المجالس (١/ ٦١٥) .

وقال أبو العتاهية :

فيا ربِّ هَبْ لي منكَ حلماً فإنّني أرى الحلمَ لم يندمْ عليه حليمُ

* وقال عمارةُ بن عقيل :

إذا أغضبتَ ذا كرمٍ تخطّى إليكَ ببعضِ أخلاقِ اللَّئيمِ
وإنَّ اللهَ ذو حُلـــمٍ ولكـــن بقَدْرِ الحلمِ منتصفُ الحليمِ

* وكان عبد الله بن عمر إذا سافرَ ، سافرَ معه بسفيهٍ ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن جاءَنا سفيهٌ ردَّ عنّا سفَهه ، لأنّا لا ندري ما نقابلُ به السُّفهاء[1] .

* وقال آخر :

ولربُّما اعتقدَ الحليمُ بجاهلٍ لا خيرَ في اليُمْنِ بغيرِ يسارِ

* * *

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٦١٩) .

الفصلُ الثّالثُ

من أخبارِ حُلماءِ العربِ

* رأينا في الفصول السَّابقةِ ماهيّة الحلم ، وعرفنا أسبابَه ودوافعَه ، كما تعلَّمنا كيف نعالجُ الغضبَ ، وعرفنا كذلك مادّة الحلم وآدابها في ضوءِ الكتاب والسُّنَّةِ ، كما تجوَّلنا مع الحلمِ في رحابِ اللُّغةِ والمَثَلِ ، ورأينا وصايا الصَّحابة والتَّابعينَ بالتزامِ الحلمِ وتمثُّلِه قولاً وعملاً ، وأوردنا كذلك جملةً صالحةً من أشعارِ العربِ في الحلم ، ورأينا في هذا الفصلِ أن نأخذَ صورةً وضيئةً عمليَّةً من أخبار الحُلماءِ في تاريخنا العربي قديمه وحديثه لتتمَّ بذلك فائدةُ الكتاب .

* وتزخرُ المصادرُ بذكرِ أسماءِ مشاهيرِ الحُلماءِ العرب في الجاهليَّةِ والإسلام ، ويوردُ الجاحظُ وغيرُه أسماءَ عددٍ كبيرٍ

من هؤلاء من مثل : زرارة بن عدس ، وحاجب بن زرارة ، وقيس بن عاصم ، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، ومعن بن زائدة وآخرين ، ومن أشهرهم الأحنفُ بن قيس الذي حظي بالشُّهرة الواسعةِ في سماء الحلم . ويقولُ الجاحظ : ولو أنَّ الأحنفَ رأى حاجب بن زرارة ، أو زرارة بن عدس أو حصن بن حذيفة لقدَّمهم على نفسه[1] .

* ويبدو أنَّ قيس بن عاصم المنقري كان المَثَلَ الشَّرود الذي يُضربُ به المثلُ في الحلمِ قديماً ، فقد كان شاعراً ، فارساً ، سيِّداً في الجاهليَّة والإسلام ، ضُرِبَ به المثلُ في الحلم فقيل : أحلمُ من قيس بن عاصم[2] .

* ومن حلم قيس ما ذكره بعضُ الرُّواةِ أنَّه جلسَ في داره يوماً على المائدة ، ومعه ولد له صغير ، وجاءتِ الجاريةُ بسفودٍ عليه شواء ، فسقطَ من يدها على رأسه فلم يُخطىء قلبَه

---

(١) الحيوان (٢/ ٢٤٦) .
(٢) الحيوان (٢/ ٩٢) .

فمات ، فدُهشَتِ الجاريةُ وانتُقِعَ لونُها ، فقال : لا بأسَ عليكِ أنتِ حُرَّةٌ لوجه الله تعالى!! .

* وتبدو على هذه القصَّةُ علائمُ النَّسجِ وتحليق الخيال لإثباتِ صفة الحلم لقيس بن عاصم المنقري هذا ، وهناك قصَّةٌ أخرى تشيرُ إلى حلم قيس عندما قُتِلَ ابنُه ، وكيف حلُمَ على قاتل ابنه ، ومنها يزعمون أنَّ الأحنفَ بن قيس قد تعلَّم الحلم .

* أمّا كيف كان ذلك وكيف حصل ، فهو ما ذكره الأخباريون والرُّواة أنَّه قيل للأحنف : ممَّن تعلَّمتَ الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم المنقري ، رأيتُه قاعداً بفناء داره ، مُحتبياً بحمائل سيفه يُحدِّثُ قومَه ، حتى أُتي برجلٍ مكتوفٍ ؛ ورجلٍ مقتولٍ ، فقيل له : هذا ابنُ أخيكَ قَتَلَ ابنَكَ! فوالله ما حلَّ حبوتَه ، ولا قطعَ كلامَه ، ثمَّ التفتَ إلى ابن أخيه فقال : يا بن أخي ، أثِمْتَ بربِّكَ ، ورميتَ نفسكَ بسهمِكَ ، وقتلتَ ابنَ عمِّكَ ، ثم قال لابن له آخر : قُمْ يا بنيَّ فوارِ أخاكَ ، وحُلَّ كِتافَ ابنِ عمِّكَ ، وسُقْ إلى أُمِّكَ مئةَ ناقةٍ ديةَ

ابنها فإنها غريبة ، ثم أنشأ يقولُ :

إنّي امرؤٌ لا شائنٌ حَسَبي دنَسٌ يُهجِّنه ولا أفْنُ[1]

من منقرٍ في بيتِ مكرمَةٍ والغصنُ ينبتُ حولَه الغصنُ

خُطباءُ حين يقولُ قائلُهم بيضُ الوجوه أعِفَّة لسنُ

لا يفطنون لعيبِ جارهم وهم لحفظِ جوارِه فُطنُ

ثمَّ أقبلَ على القاتل فقال : قتلتَ قرابتَك ، وقطعتَ رحمكَ ، وأقللتَ عدوَّكَ ، لا يبعد الله غيرك[2] .

* وكان الأحنفُ يقولُ : لقد اختلفنا إلى قيس بن عاصم

---

(١) ورد هذا البيت في الاستيعاب على النحو الآتي :

إنّي امرؤٌ لا يعتري خلقي دنسٌ يفنّده ولا أفنُ

(٢) انظر : العقد الفريد (٢/ ٢٧٧) ، وعيون الأخبار (٣/ ٢٨٦ و ٢٨٧) ، والاستيعاب (٩/ ١٨٠ـ١٨٥) ترجمة رقم (١٢٤٠) مع الجمع والتصرف ؛ وانظر : نهاية الأرب للنويري (٦/ ٥٠ و ٥١) ، والبيان والتبيين (٢/ ٤٣) ، ومجمع الأمثال (١/ ٢٣٠ وغيرها) .

في الحلم ، كما نختلفُ إلى الفقهاء في الفقه[1] .

* وفي قيس بن عاصم يقول عبدة بن الطّبيب :

عليكَ سلامُ اللهِ قيس بن عاصم ورحمتُه ما شاءَ اللهُ أن يترحَّما
تحيَّـةَ مَـنْ ألبستَـه منـكَ نعمـةً إذا زارَ عن شحطٍ بلادكَ سلَّما
وما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ ولكنَّـه بنيـانُ قـومٍ تهـدَّمـا

* وتدلُّ المصادرُ على أنَّ الأحنفَ بنَ قيسٍ كان كثيرَ العفو والحلم ، وكان مشهوراً بين الناس بالحلم ، وبذلك سادَ عشيرتَه ، وكان يقولُ : وجدتُ الاحتمالَ أنصرَ لي من الرِّجال .

* وذكرَ الأبشيهي في « مستطرفه » أنَّه قيل للأحنف : ممّن تعلَّمتَ الحلم ؟

فقال : من قيس بن عاصم ، كنّا نختلفُ إليه في الحلم ، كما يُختلفُ إلى الفقهاءِ في الفقه ، ولقد حضرتُ عنده يوماً ، وقد

---

(١) عيون الأخبار (٢/ ٢٨٧) .

أتوه بأخ له قد قتلَ ابنه ، فجاؤوا به مكتوفاً ، فقال : ذعرتم أخي ؛ أطلقوه ، واحملوا إلى أُمِّ ولدي ديته ، فإنَّها ليست من قومنا ، ثمّ أنشأ يقولُ :

أقولُ للنَّفسِ تصبيراً وتعزيةً إحدى يديَّ أصابتني ولم تُرِدِ
كلاهما خلفٌ من فَقْدِ صاحبِه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي[1]

* ولا شكَّ في أنَّ قيسَ بن عاصم كان رجلاً ذا حلمٍ ومروءةٍ وشهامةٍ ، وهو صحابيٌّ من بني تميم ، قال النّووي في « تهذيبه » : وفَدَ على النَّبي ﷺ في وفدِ بني تميم سنة تسع من الهجرة ، فأسلمَ وقال النَّبي ﷺ لمّا رآهُ : « هذا سيِّدُ أهلِ الوبر » .

وكان قيس عاقلاً حليماً مشهوراً بالحلم[2] .

---

(١) المستطرف (١/ ١٨٧ و ١٨٨) .
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٧٢ و ٣٧٣) ترجمة رقم (٥١٦) .

* وقال النّووي أيضاً : وكان قيسُ حرَّمَ الخمرَ في الجاهليّة ، وكان جواداً ، وخلَّفَ اثنين وثلاثين ابناً ، روى عن النَّبي ﷺ أحاديث ، وروى عنه الأحنفُ بن قيس والحسنُ البصريُّ ، وابنه حكيمُ بنُ قيس وآخرون ، نزلَ قيس البصرة وقال عند موته : لا تنوحوا عليَّ فإنَّ النَّبي ﷺ لم يُنَحْ عليه[1] .

* وفي كتابه « الاستيعاب » استوعبَ ابنُ عبد البر بعض أخبار قيس بن عاصم فقال : وكان قيس رضي الله عنه عاقلاً حليماً مشهوراً بالحلم ، وكان قد حرَّمَ على نفسه الخمر في الجاهليّة ؛ وقال فيها أشعاراً منها قوله :

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها ... خصالٌ تُفسدُ الرَّجلَ الحليما

فلا واللهِ أشربها صحيحاً ... ولا أسقي بها أبداً نديما[2]

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) الاستيعاب (٩/ ١٨٠ـ١٨٥) ترجمة رقم (١٢٤٠) .

* من هذا البحر الزّاخر بالحلم ، اغترف الأحنفُ[1] بن قيس فراتَ هذا الأدب الثرِّ العظيم ، فغدا من المشاهير بالحلم في عالم الحُلماء ، وكُتِبَ مع الخالدين الحُلماء .

* وممّن اشتُهر بأدب الحلم سيِّدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، حيث يأتي في مقدّمة حُلماء العرب والصَّحابة الكرام ، ولا تكادُ تخلو ترجمةٌ لمعاوية رضي الله عنه في كتابٍ من كُتبِ الأدبِ أو التَّراجمِ أو الطّبقاتِ إلا يُذكرُ فيها حلمُه .

ومن أقوالهِ المأثورةِ والمحفوظةِ في الحلمِ قولُه : عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكِّنكم الفرصةُ ، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصَّفحِ والإفضال . وكان يقولُ : إنّي لآنفُ أن يكونَ

---

(١) روي أن رجلاً شتم الأحنفَ ، وجعل يتبعه حتى بلغ حيّه ، فقال الأحنف : يا هذا إن كان بقي في نفسك شيءٌ فهاته وانصرف لا يَسْمَعَكَ بعضُ سُفهائنا فتلقى ما تكره (عيون الأخبار ٣/ ٢٨٧) .

في الأرضِ جهلٌ لا يسعهُ حلمي ، وذنبٌ لا يسعهُ عفوي ، وحاجةٌ لا يسعها جودي .

* هذا وقصَصُ الوافدينَ على معاويةَ من الرِّجالِ ، وقصَصُ الوافداتِ عليه من النِّساءِ أيضاً تملأُ كتب الأخبار ، وتدلُّ جميعها على حلمه رضي الله عنه ، فقد وردَ أنَّه قال لامرأةٍ من نُصراءِ سيِّدنا عليٍّ بن أبي طالب امتدحت عليًّا رضي الله عنه أمامَه :

إذا لـم أعُـدْ بـالحلـمِ منّـي إليكـمُ
فمَـنْ ذا الـذي بعـدي يُـؤمَّـلُ للحِلْـمِ
خـذيهـا هنيئـاً واذكـري فعـلَ مـاجـدٍ
جزاكِ على حربِ العداوةِ والسِّلمِ[1]

* وهنـاك قصـصٌ ذكـرهـا الـرُّواةُ تُشيـرُ إلى حِلْـمِ معـاويـةَ رضي الله عنه ، ومنها قصَّتُه مع الزَّرقاءِ بنت عدي الهمدانيّة ، وقصَّتُه مع عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما ، وقصَّتُه مع

---

(١) صبح الأعشى (١/ ٢٦٠) .

رجلٍ من الأنصار ، وكلُّها تُشيرُ إلى حلمه وصبرِه ، وأنَّه لم يرَ في الحلمِ إلا خيراً ، حتى قالوا : « ما هو إلا في حلمِ معاوية » .

* وذكر الرُّواةُ أنَّ المهلَّبَ بن أبي صُفرةَ كان حليماً ، وقد مرَّ بحيٍّ من همدان ، فرآه شابٌّ من أهل الحيّ فقال : هذا المُهلَّب ؟!!

قالوا : نعم .

قال : واللهِ ما يُساوي خمسمئة درهم!

وكان المهلَّبُ رجلاً أعور ، فسمعه المهلَّبُ ، فلمّا كان اللَّيلُ أخذَ في كُمِّه خمسمئة درهم وأتى إلى الحيّ ، وارتقبَ الشَّابّ إلى أن رآه ، فأتى إليه وقال :

افتَحْ حِجْرَكَ ، ففتحَ الشابُّ حجرَهُ ، فسكبَ فيه الخمسمئة درهم ، وقال : خُذْ قيمةَ عمِّكَ المُهلَّب ، والله يا بن أخي لو قوَّمتَني بخمسة آلاف دينار لأتتكَ ، فسمعه شيخٌ من أهل الحيِّ فقال : واللهِ ما أخطأ فيكَ مَنْ جعلكَ سيِّداً .

* هذا وأخبارُ الحلمِ والحُلماءِ كثيرةُ المناهلِ في مصادرنا ، وكان علماءُ العربِ وأُدباؤهم يرونَ أنَّ الحلمَ من فضائلِ العرب ، ولقد أشارَ ابنُ قتيبة إلى أنَّ فضائلَ العربِ ستّ : العِرضُ ، والحماسةُ ، والصِّدقُ ، والحلمُ ، والضِّيافةُ ، والصَّبرُ ، وأنَّها تكونُ المروءة التي هي الفضيلةُ الكُبرى .

* وذكر أيضاً أنَّهم كانوا يتواصون بالحلمِ والحياءِ والتذمّمِ والنجدةِ والصَّبرِ والبسالةِ ، بقدر ما ينكرون البخلَ والغدرَ والسَّفَهَ والدَّناءةَ .

* وقد تحدَّثَ كثيرٌ من عُلماءِ الأخلاقِ العرب عن هذه الفضيلةِ كالغزالي ، وأشاروا جميعاً إلى فَضْله وحُسن مركبه .

* هذا وليعلم العاقلُ أنَّ الحلمَ جماعُ كلِّ أدبٍ وفضيلةٍ ، فليهذِّبِ الإنسانُ نفسَهُ على هذا الأدبِ الذي يُفضي به إلى مراتبِ الخالدين .

* اللهمَّ اجْعَلْنا مِنَ الحُلَماء ، واحْشُرْنا مع سيِّدِ الحُلماء ، وزَيِّنّا بالعِلْمِ والحِلْمِ ، وأكْرِمْنا بنورِ الفَهْمِ ، إنَّكَ سميعُ الدُّعاء . ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .